العدد 3734 - السنة الثالثة عشرة
الجمعة 10 ذو الحجة 1441 - الموافق 31 يوليو 2020
Friday 24 July 2020 - No.3728 - 13 th Year

الحج يثير أخيلة الشعراء ويمدهم بصور حسية وواقعية

إلى عرفات الله يا خير زائر

لاشك أن تجربة الحج من التجارب الإنسانية الخالدة، تلهم الشعراء والأدباء، وتمنحهم من روعتها وجلالها عواطف وأحاسيس روحية عميقة، وهي على تنوعها وألوانها وأطيافها تثير أخيلة الشعراء وتمدهم بصور حسية وواقعية، وتهيج في نفوسهم أرقى أنواع المشاعر الإنسانية، وتفتق أذهانهم عن معان كبيرة، ترتد إلى التاريخ الأول للدعوة الإسلامية في أول انطلاقها من الجزيرة العربية، وتعيش حاضر المسلمين المؤلم والمتردي مع الأسف، وتتطلع إلى مستقبل أرحب حين تتحقق أهداف الأمة الإسلامية والعربية.

إن هذه التجربة القدسية تدعو الشعراء أن يقفوا أمام مسؤوليتهم الأدبية ورسالتهم، فيعبروا بحق عما يجيش في نفوسهم من آراء سياسية وأفكار دينية عامرة منحتهم إياها المواقف المتعددة الألوان في هذه المناسبة الدينية السامية، فلبس الإحرام له معنى التجرد من زخارف الحياة، ومناسك الحج من طواف وسعي لها في كل منسك معانيه الدينية والإنسانية، والوقوف بعرفات متجردين متساوين على اختلاف عروقهم ولغاتهم وألوانهم بلباس واحد يغمره البياض الناصع كالحقيقة الواضحة.

ولغنى هذه التجربة الدينية المقدسة وخصوبتها نجد كثيرًا من الشعراء قد صوروا مشاعرهم فيها، ووصفوها لنا وصفًا دقيقًا وواقعيًا.. ونأخذ من الشعراء المحدثين الذين أبدعوا قصيدة الحج أمير الشعراء أحمد شوقي في رائعته التي يقول في مطلعها:

إلى عرفات الله يا خير زائر
عليك سلام الله في عرفات
ويوم تُوَلي وجهة البيت ناضرًا
وسيم مجالي البشر والقسمات
على كل أفقٍ بالحجاز ملائك
تزف تحايا الله والبركاتِ

ثم يأخذ في وصف الكعبة الغراء، والميزاب، وزمزم في عاطفة قوية متأججة، ورمي الجمرات في صور متتابعة، وكأنها تجري حركتها أمامك هذه اللحظة:

وفي الكعبة الغراء ركن مرحب
بكعبة قصادٍ وركن عفاة
وما سكبَ الميزاب ماءً وإنما
أفاض عليك الأجر والرحمات
وزمزم تجري بين عينيك أعينًا
من الكوثر المعسول منفجرات
ويرمون إبليس الرجيم فيصطلي
وشانيك نيرانًا من الجمرات

وما يفتنك بشعر شوقي هو هذه الموسيقى الساحرة التي تتناسب مع جلال الموقف وروعة المشهد، هذه النجوى التي يطلقها ويناجي بها ربه معترفًا بتقصيره وطامعًا بعفوه ومغفرته:

ويا رب هل تغني عن العبد حجة
وفي العمر ما فيه من الهفوات؟
وأنت ولي العفو فامح بناصع
من الصفح ما سودت من صفحاتي

ويختلط الإحساس بجلال المكان المقدس بهموم عامة يشعر بها كل مسلم يعيش واقع أمته المتردي، وخاصة عندما يقف الحاج أمام قبر الرسول «صلى الله عليه وسلم» فتكون هذه المناجاة الرائعة:

إذا زرت يا مولاي قبر محمد
وقبلت مثوىً الأعظم العطرات
وفاضت مع الدمع العيون مهابة
لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية
وضاع أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله يا خير مرسل
أبثك ما تدري من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها
كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران ذكر وسنة
فما بالهم في حالك الظلمات؟

وهناك شاعر سوري حديث، لا يقل شعره روعة عن شعر شوقي، وهو الشاعر بدوي الجبل الذي تخيل أنه يسير في رحلة إلى بيت الله الحرام، ويعتذر عن عدم تحقيقها، فيعيش بروحه وخياله هذه التجربة الكبيرة التي، كما قلت سابقًا، تدعو كل شاعر إلى وصفها، والعيش في أجوائها شعرًا وخيالا وتصويرًا:

وأقعدني عنك الضنى فبعثتها
شوارد شعر لم ترع بضريب
أقمت وآمالي إليك مجدةً
تلف شروقًا معتمًا بغروب

ويصور الكعبة الزهراء والنور المتدفق منها، والشذا والوحي، ويأتي على ذكر الأماكن المقدسة.. الحطيم وزمزم، وكلها أماكن لها ذكريات عطرة، وتترك أثرًا كبيرًا في النفس عند ذكرها، وتلهب القلوب لوعة وحنينا لزيارتها ورؤيتها:

هنا الكعبة الزهراء والوحي والشذا
هنا النور فافني في هواه وذوبي
ويا مهجتي: بين الحطيم وزمزم
تركت دموعي شافعًا لذنوبي
وفي الكعبة الزهراء زينت لوعتي
وعطر أبواب السماء نحيبي

ويصف في قصيدته هذه الطويلة مواكب الحجيج كالأمواج، يدعون الله ويلحون في الدعاء، تردد الصحراء صدى هذا الدعاء، وقد اجتمعوا من كل حدب وصوب يضوع الشذا من بردهم وهم جميعًا متساوون نظائر:

مواكب كالأمواج عج دعاؤها
ونار الضحى حمراء ذات شبوب
ورددت الصحراء شرقًا ومغربًا
صدى نغم من لوعة ورتوب
تلاقوا عليها من غني ومعدم
ومن صبية زغب الجناح وشيب
نظائر فيها: بردهم برد محرم
يضوع شذًا: والقلب قلب منيب
أناخوا الذنوب المثقلات لواغبًا
بأفيح - من عفو الإله - رحيب

وذل لعز الله كل مسود
ورق لخوف الله كل صليب

ويهمنا في هذه القصيدة الثناء على الإسلام الذي وحد الأمم ومحا الأحقاد من القلوب، وكان نور هداية للإنسانية جميعًا، ورحمة على العالمين، فينطلق البدوي في هذه الابتهالات:

ويا رب في الإسلام نور ورحمة
وشوق نسيب نازح لنسيب
فألف على الإسلام دنيا تمزقت
إلى أمم مقهورة وشعوب
سجايا من الإسلام: سمح حنانها
فلا شعب عن نعمائها بغريب

سبك متين، وصور فنية متلاحقة، وعاطفة إسلامية صادقة جامحة، كلها تحقق عناصر الشعر الرائع، فمن يقرأ هذه القصيدة الطويلة يحس كأنه يعيش أجواء الحج، ويشعر كأنه في رحاب الله وفي الأماكن المقدسة، وهذه مقدرة من الشاعر أن يجعلك تعيش تجربته الشعورية، وهذا من سمات نجاح القصيدة الشعرية كذلك، وهذا ما يسميه النقاد بالصدق الفني الذي يعتبر أحد الأسس الذي تقوم عليه القصيدة الشعرية، فالقصيدة متخيلة ولكنها توهمك بأنها حقيقة، لصدق مشاعرها وصدق أسلوبها الفني، تقرأ أبيات القصيدة فيشدك الحنين إلى زيارة الأماكن المقدسة، وتتبلل عيونك بالدموع حسرة، لأنك لم تكن مع جموع الحجيج تلبي معهم، وتذرف العبرات، لأنك لم تستطع أداء الحج، وتتحرق إلى زيارة الرسول «صلى الله عليه وسلم» تشكو له همومك، وهموم أمتك التي رانت عليها، وسيطرت على كل حياتها، وتتوسل وتتضرع أن يكون مستقبل هذه الأمة أحسن حظا من الأيام السابقة، وأن تتوحد كلمة المسلمين على البر والتقوى.

وما يلفتنا في قصيدة البدوي نغمها العذب الذي يتوافق مع الجو الروحاني، والوزن الشعري (البحر الطويل) الذي يتلاءم مع الرحلة الطويلة وهي تجوب الصحراء والفيافي، واستخدامه لتراكيب وألفاظ صحراوية، وكأنها تنتمي إلى